

الحجاج القرآني في إثبات حتمية البعث " دراسة تحليلية "

يسرا محمد عبد اللطيف محمد (*)

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وبه على قضاء الحوائج نستعين، ونرجوه الهداية في الدنيا والفوز في الآخرة بجنات النعيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فقضية البعث كانت من أكثر القضايا التي اتخذها المشركون سبيلاً للتكذيب وعدم الإيمان؛ لكونها أمراً غيبياً من جهة، ولكونها متعلقة بإحياء أجساد قد بليت، وعظام قد رمت من جهة أخرى، ولهذا ردّ عليهم البيان القرآني، وسجّل إنكارهم لها وجدلهم حولها، وفنّد شبهاتهم تفنيداً لم يبق لها أثراً؛ لذا وقع اختيارنا لهذه الدراسة بعنوان: " الحجاج القرآني في إثبات حتمية البعث " دراسة تحليلية".

وقد عولت هذه الدراسة في ذلك على ثلاث سور كانت قضية البعث المحور الأساس في كل منها، وتلك السور هي:

- أولاً: سورة " ق "
- ثانياً: سورة الانشقاق.
- ثالثاً: سورة الروم.

وسوف أورد تلك السور حسب ترتيبها النزولي.

(*) المعيدة بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب- جامعة سوهاج، جمهورية مصر العربية. هذا البحث جزء من رسالة الماجستير الخاصة بالباحثة بعنوان: " السياق وتنوع التعبير القرآني عن حتمية البعث دراسة بلاغية"، بإشراف: أ.د.حسن جاد طبل: أستاذ البلاغة والنقد الأدبي -كلية دار العلوم جامعة القاهرة & أ.ديهاء محمد محمد عثمان: أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بقسم اللغة العربية- كلية الآداب - جامعة سوهاج.

أسباب اختيار الموضوع:

أولاً: توضيح التقنيات الحجاجية والبلاغية التي وظفها البيان القرآني لإثبات حتمية البعث.

ثانياً: عدم الوقوف- حسب علمي- على دراسة تغطي جوانب هذا الموضوع.

ثالثاً: محاولة الربط بين الدراسات الحجاجية والبلاغية.

رابعاً: تعلقي بكتاب الله، وتطلي إلى استكناه أسرار البلاغية ومراميه البيانية.

الدراسات السابقة:

لا توجد حسب علمي- دراسة تناولت هذه السور الثلاث من خلال منظورها الحجاجي، غير أن هناك دراسة تناولت سور "ق" من حيث صورتها الفنية فقط، وهي بعنوان: من بدائع النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية لسورة (ق)، د. إبراهيم طه أحمد الجعلي، الطبعة الثانية، ١٩٨٧ م.

منهج الدراسة:

تستند هذه الدراسة إلى المنهج التحليلي الذي يقوم برصد الظاهرة ثم تحليل مبادئها فنياً وموضوعياً؛ رغبة في استجلاء القيم الفنية في آيات البعث، وإبراز طبيعة المسلك الذي اتبعه القرآن في حجاج من ينكرون البعث، وإثبات حتميته.

توطئة:

يلمح المتأمل في التعريفات المتعددة للبلاغة بعدًا حجاجيًا، ويظهر هذا البعد بصورة جلية- على سبيل المثال- في التعريف الذي أورده الجاحظ قائلًا:
"قال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة."^(١)

ونسبة الجاحظ هذا التعريف إلى أهل الهند قد تشعر القارئ باقتضاره على البيئة المذكورة، غير أن الدكتور "حمادي صمود" أشار إلى ارتباطها بمفهوم أرسطي؛ حيث قال: " وهو حسن التدبير والتقاط المناسبة بين الحجة وسياق الاحتجاج في صورتها المثلى حتى يسد المتكلم السبيل على السامع فلا يجد منفذًا إلى استضعاف الحجة والخروج عن دائرة فعلها، وربما نقضها بما يخالفها أو يباينها."^(٢)

إن نسبة عبارة البصر بالحجة لأهل الهند تارة وانطباقها على المفهوم الأرسطي تارة أخرى، أمران يثيران التساؤل عن مدى تحقق هذا المفهوم في البيئة العربية، والواقع أن تتبع تعريفات العرب المتعددة للبلاغة تكشف عن تحققه لديهم، إذ إن صاحب العقد الفريد أورد تعريفًا يتضمن هذا البعد الحجاجي نفسه على لسان أحد البلغاء وهو خالد بن صفوان إذ قال: "اعلم رحمك الله أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهزيان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة"^(٣).

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، الجزء الأول، ص ٨٨، ولقد شرح أبو هلال العسكري البصر بالحجة وهو النظر في المقام وما يتطلبه من اختيار الإفصاح أو التعريف وقد أطلق على التعريف الكناية، ينظر: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البيجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الثامنة، بدون تاريخ، ص ١٥.

(٢) في الخلفية النظرية للمصطلح، حمادي صمود، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج، إشراف: حمادي صمود، جامعة الفنون والعلوم الإنسانية- تونس، ص ١٤.

(٣) العقد الفريد، تأليف أحمد بن عبد ربه الأندلسي؛ تحقيق، د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة، وبدون تاريخ، الجزء الثاني، ص ١٢٢.

ويضيق المقام عند تناول تلك المسالك وتوصيفها بدقة في ظل استحضار ذلك البعد الحجاجي، يقول الدكتور عبدالله صولة: "إن موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم... وغاية كل حجاج أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأتجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الامساك عنه) أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيين لذلك العمل في اللحظة المناسبة".^(١)

ويقول الدكتور صلاح فضل: إن نظرية الحجاج عبارة عن "منظومة فكرية متجانسة لها شروطها، ولا بد لانبثاقها من توافر قدرة على التفكير المنظم حول مجموعة من المبادئ المتماسكة، والوصول بها إلى درجة عالية من التجريد والتكامل من ناحية، وقابلية التطبيق العملي في الممارسة من ناحية ثانية"^(٢).

و لقد حظيت المفاهيم الأرسطية الحجاجية التقليدية بعناية الباحثين المحدثين، وذلك لتطويرها والإفادة منها بما يتناسب مع ما يتناولونه من نصوص، وسأكتفي في هذا المقام بعرض ثلاثة مفاهيم تجسد من وجهة نظري- أبرز المفاهيم المؤثرة في الدراسات الحجاجية، وهي:

أ-الفرق بين الشاهد والمثال.

ب-حجاجية الصورة.

ج-السلم الحجاجي.

ويحسن الوقوف إزاء كل مفهوم من تلك المفاهيم الثلاثة:

(١) الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة -" لبرلمان وتتيكا، د.عبدالله صولة، ضمن المؤلف الجماعي أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية - تونس، ص ٢٩٩.

(٢) هل توجد نظرية نقدية عربية ؟ د.صلاح فضل، مجلة العربي الكويتية العدد ٥٦٠، جمادى الأولى ١٤٢٦ يوليو ٢٠٠٥م، ص ٦٠.

أ- الفرق بين الشاهد والمثال:

يندرج مفهوما (الشاهد والمثال) ضمن ما يعرف بالحجج المؤسسة لبنية الواقع، وقد ميز برلمان بينهما، إذ أوضح أن الشاهد قائم على افتراض وجود انتظام أو اطراد لما يسعى الشاهد إلى تجسيده، وإثبات قاعدته، وذلك انطلاقاً من حالة خاصة انطلاقاً يرفض اعتبارها حالة معزولة، ومقتصرة على السياق الذي وردت فيه بل يسعى من خلالها إلى المرور إلى قاعدة عامة، ويضرب مثالا لذلك أن يرتقي شخص موهوب مجتهد في مكانته الاجتماعية في مجتمع يسمح بمثل هذا النجاح لترسيخ التفاؤل والإيمان (القاعدة العامة)^(١).

ويشير الدكتور عبد الله صولة إلى أن الشاهد^(٢) يقوم في بعض المواضع على فكرة النموذج وعكس النموذج؛ وذلك من خلال الاتكاء على القيمة المعروفة للشخص بوصفها مقدمة يستنتج منها نتيجة تدعو إلى توخي سبيل من السبل، وقد يوظف عكس النموذج للحض على الانفصال عن الشخص الوارد في النموذج، وقد ينتج عن هذا التبادل للأدوار بين المتخاطبين كأن يقول الأب لابنه الكسول كان نابليون في مثل سنك رأس فصله ليجيب الابن وفي مثل سنك كان امبراطوراً^(٣).

أما المثال فخلافاً للشاهد لا يستخدم لتأسيس قاعدة عامة بل لتوظيف قاعدة معروفة ومسلم بها وهو يستهدف المخيلة، وقد ضرب الدكتور الحسين بنو هاشم مثالا بحكايات كليلة ودمنة؛ لقيامها قبل سرد أحداث الحكاية بتوضيح القاعدة المبنية عليها، كما أشار إلى أن هذا التوضيح يتم بطريقة المقارنة بين حالتين تطبيقيتين^(٤).

ويضرب الدكتور عبد الله صولة مثالا قرآنياً من سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا

(١) ينظر: نظرية الحجاج عند شايبم برلمان، تأليف د. الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص ٨٣-٨٤.

(٢) وقد أطلق على الشاهد المثل، وعلى المثال التمثيل، وهذا من جراء اختلاف الترجمة، على حين اعتمدت على ترجمة الحسين بنو هاشم في توضيح الفرق بينهما.

(٣) ينظر: الحجاج: أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة - " لبرلمان وتتيكا، ص ٣٣٨ إن هذا المثل مترجم عند برلمان وتتيكا.

(٤) ينظر: نظرية الحجاج عند شايبم وبرلمان، ص ٨٤، ٨٥.

وَأِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [العنكبوت: ٤١] لقد بين الدكتور عبد الله صولة قيام الآية على تشابهه علاقة لا علاقة تشابهه، ذلك أن علاقة المشركين بأوليائهم تشبهه علاقة العنكبوت ببيتها من حيث الاعتصام؛ أي اعتصام المشركين بالأولياء واعتصام العنكبوت ببيتها" (١).

ب- الصورة الحجاجية:

لقد تنوع مفهوم الصورة تنوعاً يجعل استعراض تعريفاته أمراً صعباً لضيق المقام، ولارتباط مفهومها بالجانب الحجاجي - وهذا ما نحن بصددده- نكتفي بتعريف الدكتور عبد الله صولة الذي قال بعد أن ذكر تعريفاً للصورة الحجاجية إنها عبارة عن "... تعبير استبدالي يقوم فيه "الشيء المشاهد" أو "الملموس" أي الصورة بديلاً عن الفكرة أو المعنى أو المفهوم، سواء جاء هذا التعبير بالصورة للكشف عن كوامن نفس المتكلم أو لمجرد الإمتاع أو للتأثير والمحاكاة والإقناع" (٢)، والمفهوم الذي يريده الدكتور عبد الله صولة أن الصورة الحجاجية هي التعبير الحسي عن المعنى.

لقد استخرج الباحثون بناء على التعريف السابق وظائف للصورة، منها ما ذكره الدكتور كمال الزماني من قصد "توجيه سلوك المخاطب ومواقفه إلى أمر من الأمور، سواء كان هذا التوجيه بغرض الترغيب في ذلك الأمر أو بغرض التنفير منه.. وتستخدم بغية تحقيق هذه الوظيفة في التحسين والتقبيح والمبالغة" (٣).

ج- السلم الحجاجي:

ترجع نظرية السلم الحجاجي إلى ديكر، وقد عرض لها الدكتور "طه عبد الرحمن" مبيناً مفهوم السلم الحجاجي إذ قال: إنه "عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بشرطين:

(١) ينظر: الحجاج: أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة -

" لبرلمان وتنيكا، ص ٣٣٩، ص ٣٤٠

(٢) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، د. عبد الله صولة، دار الفارابي - بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م، ص ٤٨١

(٣) حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، د. كمال الزماني، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، أربد - الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص ٨٣.

١. كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته؛ بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

٢. كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين، كان يعلوه مرتبة دليل أقوى عليه" (١).

وعلى الرغم من دقة المفاهيم السابقة فإنني مراعاة لخصوصية النص القرآني لن أنطلق منها في التحليل، وذلك لعدم إمكان إحاطة تلك المفاهيم للسياق القرآني الممتد-ومن ثم -اكتفيت باختيار هذه السور القرآنية الثلاث؛ لأعرض من خلالها النمط الحجاجي الذي اختاره البيان القرآني في كل منها لتقرير حقيقة البعث ودحض أي شبهة يثيرها المجادلون حوله.

أولاً: سورة (ق):

تعد قضية البعث إحدى القضايا الجوهرية في السور المكية على وجه العموم وفي بعض هذه السور ومن بينها سورة ق على وجه الخصوص، ويبين البقاعي هذه الخصوصية في سورة "ق" قائلاً: "ومقصودها تصديق النبي - صلى الله عليه وسلم- في الرسالة التي معظمها الإنذار، وأعظمه الإعلام بيوم الخروج بالدلالة على ذلك بعد الآيات المسموعة الغنية بإعجازها عن التأييد بالآيات المرئية الدالة قطعاً على الإحاطة بجميع صفات الكمال، وأحسن من هذا أن يقال: مقصودها الدلالة على إحاطة القدرة التي هي نتيجة ما ختمت به الحجرات من إحاطة العلم لبيان أنه لا بد من البعث ليوم الوعيد" (٢).

والحق أن القارئ المتأمل في سياق هذه السورة يتبين له أنها قد سلكت في معالجتها لتلك القضية مسلماً حججياً وظفت من خلاله كثيراً من صور الحجاج

(١) اللسان والميزان أو التكور العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ٢٧٧، وينظر: تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاج، جمع وتعريب: صابر الحباشة، دار المتوسطة للنشر - تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ، ص ٢٠١.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، المجلد السابع، ص ٢٤٣.

التي تواردت على تقرير حقيقته وتأكيد حتميته منذ مطلع السورة حتى ختامها، وأود فيما يلي أن أعرض لأبرز هذه الصور:

١- حاجبية الاستهلال:

قال تعالى: ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ اِذًا مِنَّا وَكٰنَا نُرٰبِطُ ذٰلِكَ رَجْعًا بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْاَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِیْظٌ ۝٤﴾ [لق: ١ - ٤]

لقد اتكأت هذه الآيات على بعض الموجهات التعبيرية التي أدت دورها الحجاجي في استثارة أذهان المخاطبين وقرع أسماعهم، ومنها:

أ- البدء بحرف التهجي "ق".

ب- حذف المقسم عليه.

ج- تخصيص الرسول- صلى الله عليه وسلم- بالإنذار.

د- دلالة حرف الإضراب "بل".

ونود فيما يلي التوقف قليلاً إزاء كل من هذه الموجهات:

أ- البدء بحرف التهجي "ق":

ابتدأت السورة بأحد الحروف المقطعة "ق" وجاءت تسمية السورة بهذا الحرف، وقد أشار الرازي إلى "أن هذه الحروف تنبيهات قدمت على القرآن، ليبقى السامع مقبلاً على استماع ما يرد عليه، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى الفائق" (١).

فالقسم يلفت انتباه المخاطب ويقرع سمعه، مما يجعله أكثر يقظة في وعيه وإدراكه.

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ، المجلد الثامن والعشرون، ص ١٢٠.

ب- حذف المقسم عليه:

قال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ يَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ [لق: ١-٢]

لقد ذكر المفسرون في تقدير المقسم عليه عدة آراء منها:

- أن تقديره أنك جنتهم منذراً بالبعث، فلم يقبلوا بل عجبوا.

- وقيل: ما ردوا أمرك بحجة.

- أنه حذف لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن.

- ومنهم من قال: إنه متصل بالإنذار، موازنا بين "ق" و"يس" ومنهم من ذكر الآراء ولم يرجح^(١).

والحق أن ما ذهب إليه ابن الأثير هو ما تطمئن إليه النفس من أن المقسم عليه محذوف وتقديره "والقرآن المجيد لتبعثن"^(٢) ويدل على هذا الآية الواردة بعد القسم المتعلقة بالبعث وهي

ويضيف الدكتور "إبراهيم التلب" ملمحاً آخر في بيان السر الكامن وراء حذف المقسم عليه في سورة "ق" حيث قال: "ويلوح هنا سر آخر وراء هذا الحذف وهو أنه يسد على المخاطب المنكر طريق الاعتراض لنلا يماري المنكر

(١) ينظر: تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، طبعة ١٤٢٠ هـ، المجلد التاسع، ص ٥٢٨، و التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية- تونس، ١٩٨٤م، المجلد السادس والعشرون، ص ٢٧٧، وروح المعاني، للألوسي، تحقيق: علي عبدالباري عطيه، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ، المجلد الثامن، ص ١٥٦-١٥٧، و غرائب التفسير وعجائب التأويل، للكرماني، تحقيق: د.شمران سركال العجلي، دار القبة الثقافية الإسلامية- جدة، مؤسسة علوم القرآن -بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ، المجلد الثاني، ص ١٢٨، ومن جملة ما

ذكر من آراء أنه موجود وليس محذوفاً وهو إما الآية الرابعة أو الثامنة عشر.

(٢) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنتور، ضياء الدين الأثير، قام بتحقيقه والتعليق عليه د. مصطفى جواد. د.جميل سعد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، طبعة ١٣٧٥ هـ، ١٩٥٦م، ص ١٣٥.

في الجواب، بل ينتقل من القسم إلى كلام آخر له ارتباط بالجواب المحذوف وبذلك يكون القسم، فيفاجأ بكلام آخر يؤيد الغرض من القسم ذاته" (١)

ولعل مما يدعم هذا الرأي الانتقال المتحقق في قوله عز وجل حكاية عنهم في الآيتين التاليتين لهذا القسم ﴿ أَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾ قَدَعَلْنَا مَا نُنْقِصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ [ق ٣: ٤] حيث يفاجأ المنكر بكلام آخر يؤيد الغرض من القسم ذاته.

ج- تخصيص الرسول- صلى الله عليه وسلم - بالإندار:

قال تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾ [ق: ٢] إن تخصيص الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالإندار فيه دحض لشبهتهم حول إنكار البعث، بل إنه يحمل في طياته إثباتا حتميا للبعث، إذ من المعلوم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس نذيرا فقط وإنما بشير ونذير مصداقا لكثير من المواطن التي أشارت إلى ذلك منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلَّ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [البقرة: ١١٩]

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨]

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر: ٢٤]

وقوله سبحانه: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤] يقول البقاعي في ذلك: "لأن العادة عندهم وعند جميع الناس أنه إذا كان النذير منهم لم يداخلهم في إنذاره شك بوجه من الوجوه، وهؤلاء خالفوا عادة الناس في تعجبهم من كون النذير - وهو أحدهم - خص بالرسالة دونهم، ولم يدركوا وجه الخصوصية لكونه مثلهم" (٢).

(١) أسلوب القسم في القرآن الكريم، د. إبراهيم عبد الحميد التلب، مجلة كلية اللغة العربية العدد الخامس ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، جامعة الأزهر - القاهرة، ص ٨٢.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص ٢٤٧.

ولعل من المناسب الإشارة إلى أن الآيات التي وردت في استهلال هذه السورة قد تضمنت - فوق ما تقدم - الكثير من الموجهات التعبيرية التي أسهمت بصورة فاعلة في دحض مزاعم منكري البعث يقول ابن عاشور في ذلك: "فقد حصل في ضمن هاتين الفاصلتين خصوصيات كثيرة من البلاغة: منها إيجاز الحذف، ومنها ما أفاده الإضراب من الاهتمام بأمر البعث، ومنها الإيجاز الكبير الحاصل من التعبير ب (منذر) ومنها إقحام وصفه بأنه منهم؛ لأن لذلك مدخلاً في تعجبهم، ومنها الإظهار في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر، ومنها الإجمال المعقب بالتفصيل في قوله: هذا شيء عجيب إذا متنا، وعبر عنهم بالاسم الظاهر في فقال الكافرون دون: فقالوا، لتوسيمهم فإن هذه المقالة من آثار الكفر، وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين" (١).

د- دلالة حرف الإضراب "بل":

ورد حرف الإضراب "بل" في سورة (ق) ثلاث مرات في قوله تعالى:

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾ [ق: ٢]

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق: ٥]

وقوله تعالى: ﴿ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق: ١٥]

إن ورود حرف الإضراب "بل" ثلاث مرات يجعل القارئ يفكر في دلالاته، وقد أوضح ابن يعيش هذه الدلالة قائلًا: إنها تفيد "الإضراب عن الأول وإثبات الحكم للثاني، سواء كان ذلك الحكم إيجاباً أو سلباً... وتحقيق ذلك أن الإضراب تارة يكون عن المحدث عنه، فتأتي بعد "بل" بمحدث عنه، وتارة عن الحديث، فتأتي "بل" بالمقصود من الحديث والمحدث عنه" (٢).

فالإضراب دل على أن إنكارهم ناتج عن تعجل وعدم إدراك، وهذا ما توحى

به الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾ [ق: ٢]

(١) التحرير والتنوير، المجلد السادس والعشرون، ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٢) شرح المفصل، لابن يعيش، قدم له د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، المجلد الخامس ص ٢٦، ٢٧

وبناء على ما سبق ومن خلال استحضار سياق السورة يمكن القول إن حرف الإضراب "بل" وظف لبيان الاضطراب الذي يعيشه منكرو البعث، وهذا ما دلت عليه لفظتا (مريج) و(لبس) في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق: ٥]

وقوله تعالى: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]

يقول الراغب في مادة [م.ر.ج.]: "أصل المَرَج: الخلط، والمرج الاختلاط يقال: مَرَجَ أمرهم: اختلط، ومَرَجَ الخاتم في أصبعي، فهو مارج، ويقال: أمرٌ مريج أي: مختلط، ومنه غصنٌ مريجٌ مختلط" (١).

ويقول ابن فارس في مادة [ل.ب.س.]: " اللبسُ: يدل على الستر، ويقال في رأيه لبسٌ؛ أي اختلاط، كما يقال للمجنون مخالط. والتبس عليه الأمر، أي اختلط واشتبه" (٢)

ويتبين من خلال استحضار هذا المعنى للفظتين أن ما وقع فيه منكرو البعث لا يؤهلهم لإدراك المراد من الآيات، ويمكن أن نطلق على هذا الإدراك الناتج عن اللبس (الإدراك الناقص) ذلك الإدراك الذي يناقض تمامًا الإدراك المثالي الذي سوف نستجلي ملامحه من خلال تأمل الآيات التي تضمنتها النقطة التالية:

٣- الصورة المثلى للإدراك وعلاقتها بجحاجة الصورة :

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوْاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَبَاتٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَهُ وَذُكِّرُوا لِكُلِّ عِبْدٍ مُّسَبِّحٍ ﴿٨﴾ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْدِرًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبْتًا وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٦ - ١١]

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ. مادة [م . ر . ج.].

(٢) مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

• مادة [ل . ب . س]، وتتنظر المادة نفسها في: تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون تاريخ.

تشتمل هذه الآيات على توجيه قرآني لمنكري البعث، ويمكن أن نطلق على هذا التوجيه (الصورة المثلى للإدراك) ويلاحظ أن هذه الصورة ابتدأت بالاستفهام التقريري؛ والتقرير مسلك سلكه القرآن بغية إفراح مجال أوسع للمخاطب كي يتفكر ولا يقدم على الإنكار جملة واحدة.

وقد عمد القرآن إلى الصورة الحجاجية المأخوذة من واقع البيئة المحيطة بهم، من خلال الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها وإنباتها، فمادة الصورة هي [البيئة الصحراوية - اعتمادها على ماء المطر - إحياء الأرض - خروج النبات فخرجهم سيكون مثل مشهد إحياء الأرض، وخروج النبات الذي ينمو تحت أنظارهم، ونظرًا لوضوح هذا الشاهد وأخذه من الواقع الملموس اختتمت الآية بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝﴾ كأنها نتيجة منطقية يقود إليها ما عاينوه من إحياء الأرض وإنبات النبات، والأمر اللافت هنا هو أن البيان القرآني حين أشار إلى إنبات الأرض آثر لفظ "الإحياء" أما حينما أراد بعث الأجساد من القبور آثر لفظ "الخروج" ولعل هذا - والله أعلم بمراده - للاشعار بمدى يسر هذا الخروج وتلقائيته.

فنحن في هذه الآيات السابقة إزاء صورة تشبيهية (كذلك الخروج)، حيث شبه إخراج الأجساد من القبور بإخراج النبات من الأرض بعد نزول ماء السماء عليها، وهي صورة تؤدي وظيفتها الحجاجية من خلال اعتماد مادتها على طبيعة البيئة التي يحيا فيها منكر البعث؛ "لأن هذه الحجج لا يمكن أن تتحقق غاياتها الحجاجية إلا إذا كانت مبنية على عناصر تشبيهية تلائم السامع وتوافق توجهاته، بحيث يسهل عليه بيان الفوارق ورصد الاختلافات بين عناصرها"^(١).

يقول ابن عاشور في تقديم شبه الجملة (كذلك) في قوله تعالى (كذلك الخروج): "تقديم المجرور على المبتدأ للاهتمام بالخبر لما في الخبر من دفع الاستحالة وإظهار التقريب، وفيه تشويق لتلقي المسند إليه"^(٢).

وعلى الرغم من وجاهة ما قال فإن المسلك الحجاجي هو الذي استدعى هذا التقديم والتأخير؛ حيث إن التقديم والتأخير بني على إدراكهم القاصر الذي

(١) حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام على رضي الله عنه، ص ١٢٦.

(٢) التحرير والتنوير، المجلد العاشر، ص ٢٩٥.

انطلقوا فيه من إغفال البيئة المحيطة فجاء هذا التقديم مناسباً لما انطلقوا منه، بل على غرار استبعادهم؛ لأنهم استبعدوا أمراً متحققاً أصلاً.

وبناء على العلة السابقة للتقديم والتأخير يمكن القول إن الآية الواردة في ختام السورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [٤٢] [ق: ٤٢] تمثل النتيجة الحتمية التي يستبعدونها على الرغم من وضوح القياس الوارد في مطلع السورة، ويستطيع المتأمل للسورة أن يرى تتابع الإدراكين (الناقص والتمام) في الآيات إذ عرض القرآن للصورة الأولى وعاقبتها في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَمَيِّدًا﴾ [١٩] وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ [ق: ١٩ - ٢٢]

وقد أجملت السورة طبيعة الصورة المثلى للإدراك في قوله عزوجل بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]

ففي هذه الآية إشارة صريحة إلى أن الصورة المثلى للإدراك هي التعلقل وإلقاء السمع دون التأثر بالمحيط، والنظر وهو شهيد، يقول الدكتور إبراهيم الجعلي: "الشهود والشهادة بمعنى الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو البصيرة، والمبالغة في (شهيد) تدل على تحديق العين إليه للحرص على فهم المراد؛ إذ إن النظر يعين العقل على الإدراك والفهم، وهذا المقطع من الآية فيه تنويه بشأن المؤمنين الذين يلقون السمع للآيات وهم في نفس الوقت حاضرو الأذهان لا يشغلهم شاغل عن تدبرها والاتعاظ بها" (١).

ويدل على بلوغ الصورة المثلى للإدراك ذروتها التعبير بيوم الخروج في قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]

وهو تعبير قد جاء مغايراً للصورتين [الناقصة والمثلى] إذ إنه النتيجة الحتمية للإدراكين، ويتضح من هذا أن السورة بنيت على مسلك حجاجي

(١) من بدائع النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية لسورة (ق)، د. إبراهيم طه أحمد الجعلي، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص ٧٣

تصاعدي دحض ما انطلق منه منكرو البعث، وظهر هذا بصورة جلية من رسم الصورة الحجاجية المستمدة من واقع البيئة كما تبين.

ثالثاً: دحض أصل الشبهة:

قال تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْبٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ق: ٤]

وردت هذه الآية الكريمة لتقويض الشبهة التي أثارها منكرو البعث من أساسها، وهذه الشبهة متمثلة في استفهامهم الناتج عن عدم تصور جمع الأشلاء بعد تناثرها واختلاط هذه الأشلاء بالتراب حتى لا تكاد تتمايز عنه، ثم تتقاذفها الرياح يميناً ويسرة، فكيف تبعث من جديد بعد هذا التحول، فشبهتهم مبنية على التدرج في الاستحالة من بداية الموت وفقدان أصل الحياة، إلى صيرورتهم تراباً، فجاء الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْبٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ق: ٤] فاقتلع بهذا الرد هذه الشبهة من جذورها.

يقول ابن عاشور في تجلية المسلك الحجاجي لتلك الآية: " فإن إحالتهم البعث ناشئة عن عدة شبه منها: أن تفرق أجزاء الأجساد في مناحي الأرض ومهباب الرياح لا تبقى أملاً في إمكان جمعها إذ لا يحيط بها محيط وأنها لو علمت مواقعها لتعذر التقاطها وجمعها، ولو جمعت كيف تعود إلى صورتها التي كانت مشكلة بها، وأنها لو عادت كيف تعود إليها، فاقصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذراتها... والمعنى أن جمع أجزاء الأجسام ممكن لا يعزب عن علم الله...، فقوله: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم إيماء إلى دليل الإمكان لأن مرجعه إلى عموم العلم... فأساس مبنَى الرد هو عموم علم الله تعالى لأن يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم فلو قال، نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادر فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله حتى تتسلط على جمعها قدرته فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم" (١).

رابعاً: التركيز على بنية التقابل:

(١) التحرير والتنوير: الجزء السادس والعشرون، ص ٢٨٠، ٢٨١، بتصريف.

ويتجلى هذا التقابل في صورتين هما:

أ- عرض مشهدين متقابلين من مشاهد يوم البعث.

ب- طبيعة الأقوال في سياق السورة.

وفيما يلي نتوقف إزاء كل من هاتين الصورتين:

أ- عرض مشهدين متقابلين من مشاهد يوم البعث:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۗ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كِفَّارٍ عَيْنِي ﴿٢٤﴾ مَتَاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّزِيدٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْئَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِّلْمُنْفِقِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَهُ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴿ لَق: [١٩-٣٥]

فنحن هنا أمام مشهدين متقابلين:

الأول: مشهد منكري البعث وهم يذوقون عاقبة الإنكار.

الثاني: مشهد المتقين وهم ينعمون في الجنة.

ويستطيع المتأمل في هذه الآيات أن يلاحظ ما يلي:

١- أنها قد زاوجت بين الإدراكين (الناقص والتام) وألحقت بكل منهما المصير الذي يسوق إليه، فالإدراك الناقص هو ما تشير إليه الآية الثانية والعشرون ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ أما مصيره فهو ما توحى به الآية الثلاثون ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

أما الإدراك المثالي فهو ما يتمثل في قوله سبحانه: ﴿مَنْ خَسِيَ الرَّحْمَنَ يَأْتِيبَ وَجَاهَهُ يُقَلِّبُ مُنِيبٌ﴾ (٣٣) والمصير الذي يفضي إليه هذا الإدراك ﴿وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةَ لِمُنْفِيَةٍ غَيْرَ بُعِيدٍ﴾ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ (٣٣).

٢- التعبير عن اليوم الذي يمثل عاقبة الإدراك الناقص (بيوم الوعيد) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (٣٠) وعن اليوم الذي يمثل عاقبة الإدراك المثالي (بيوم الخلود) ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (٣٤).

٣- يلاحظ إيثار الماضي (نفخ - جاءت - كشفنا - قال - أزلفت - جاء) الدال على التحقق، مما يشعر المخاطب بأن المشهدين قد استقرا وكل فريق منهما لقي مصيره فأهل النار في النار والمتقون منعمون في الجنة، ولكن تتخلل هذه الصيغة صيغة المضارع (نقول - نقول) مما يشعر المنكر بأنه مازالت الفرصة أمامه سانحة كي يذعن ويؤمن بالبعث.

ب- طبيعة الأقوال في سياق السورة:

إذا تتبعنا مادة القول في سياق هذه السورة يتبين لنا ما يلي:

▪ أنها أسندت إلى منكري البعث ثلاث مرات

في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿بَلْ يَجِبُونَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا نَقْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٢) أَوْ ذَا مِثْنًا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٣) ﴿لَق: ٢ - ٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (٣١) ﴿لَق: ٣٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥) ﴿ق: ٤٥﴾.

▪ وردت مسندة إلى القرين مرتين

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ (٣٣) أَلَيْفَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِي﴾ (٤٤) مَتَاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّزِيدٍ﴾ (٤٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٦١) ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ وَلٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٦٧) ﴿لَق: ٢٣ - ٢٧﴾.

▪ ووردت مسندة إلى جهنم مرة واحدة ﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ (٣٠) ﴿لَق: ٣٠﴾.

▪ ووردت مسندة لله عز وجل مرتين:

في قوله سبحانه: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ (٣٨) مَا يُدَلُّ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْبَئِيدِ (٣٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٤٠) ﴿ لق: ٢٨ - [٣٠].

ويتأمل هذه المواطن يتبين لنا ما يلي:

أولاً: أن كل الأقوال المنسوبة لمنكري البعث هي أقوال صدرت عنهم في الدنيا يرددونها في سياق إنكارهم للبعث وتشكيكهم فيه.

ثانياً: أن الأقوال الأخرى المنسوبة إلى غير هؤلاء المنكرين [رب العزة - القرين - جهنم] هي أقوال أخروية.

ومغزى هاتين الملحوظتين أن هذا الكافر الذي يلهج في دنياه بإنكار البعث سوف يصمت صمتاً مطبقاً عند حدوث هذا البعث، وتبقى الكلمة فقط لله عز وجل ولمن يأذن له بالقول في هذا اليوم، وبذلك يبدو التقابل جلياً بين هذه الأقوال المكذوبة التي تصدر عنه في الدنيا، وهذا الخرس الذي سيحقيق به يوم القيامة حين يلقي مصيره في جهنم التي تصك مسامعه كل حين بهذا التساؤل ((هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)).

يقول محمد قطب: إن مثل هذه الآيات تعرض صورهم يوم القيامة في جهنم وصور المؤمنين في الجنة ولكن بغير خطاب مباشر للمنكرين لحقيقة البعث، فكأنما هي تتجاهلهم في الظاهرة ولا تفرض لهم وجوداً ولا تلتفت إليهم، وإنما تعرض الحقائق قائمة بذاتها... وهي طريقة من طرق التأثير الوجداني القوي المفعول، فإن الإنسان بطبعه يعقد بين نفسه وبين بطل القصة المعروضة مقارنة خفية واعية أو غير واعية، فإن ناله خير تمنى أن يكون مكانه، وإن ناله شر تمنى أن يكون في نجوة منه، ومن هنا يدخل التأثير في قلوب أولئك المعاندين حين يرون أمثالهم يعذبون في نار جهنم، ويرون المؤمنين ناجين في

النعيم، فتهفو قلوبهم إلى المشاركة في ذلك النعيم، والفرار من ذلك الجحيم، وينسون في غمرة التأثير إنكارهم للبعث" (١).

خامساً: التكرار المتدرج:

يقصد بالتكرار المتدرج أن الظاهرة اللغوية المكررة في سياق السورة سواء أكانت لفظة أو عبارة أو غير ذلك لا تكرر بالصورة نفسها التي وردت عليها في المرة الأولى، وإنما تكرر بصورة مغايرة تدل مغايرتها على ما يعزز تطوير الحجاج في نسق السورة، كأن تكون في المرة الثانية تصور النتيجة التي آل إليها أمر المتحدث عنه في المرة الأولى، ونود فيما يلي أن نستعرض أبرز صور هذا التكرار في سياق السورة:

أ - لفظ "الخروج":

حيث وردت في بداية السورة بالتشبيه (كذلك الخروج) - وقد تم تفصيل القول فيها منذ قليل، لكنها عند ورودها في المرة الثانية وردت كأنها نتيجة حتمية أو حقيقة واقعة لما تقدم ذكره فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [آق: ٤٢]

ب- لفظ "بالحق":

لقد تكررت هذه اللفظة في سياق هذه السورة ثلاث مرات في المقطع الأول من السورة، وذلك في قوله عزوجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ﴾ [آق: ٥]

وفي بداية المقطع الثاني في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [آق: ١٩]

وفي المقطع الأخير في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [آق: ٤٢]

وبالتأمل يتبين لنا أن لفظ "بالحق" الأولى تعني القرآن، فمنكرو البعث كذبوا بالقرآن وما جاء به من أدلة الوجدانية، وإثبات قدرة الله على البعث، ثم

(١) دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، الطبعة السابعة، ١٩٩٣م، ص ٧٤، بتصرف.

ذكر "بالحق" الثانية في سياق الحديث عن حقيقة الموت التي يقرون بها، فهو حق عندهم، ثم عاود النظم القرآني ذكرها في ختام السورة وفي تقريره لحقيقة وحتمية الخروج إمعاناً في التأكيد لها، ويعضد هذا الفهم إيثار الفعل المضارع في هذه السورة "يسمعون" الذي يدل على أن هذا الحق كان يتكرر ذكره لهم وهم معرضون حتى أصبحوا أمامه فالمقصود من تكرارها في المرة الثالثة تأكيد حقيقة البعث وأنه حق لا مفر منه.

ج- التعبير بالظرف (عند - لدى):

يظهر جانب حاجي آخر في اختيار الظرف (عند) في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾﴾ [لق: ٤] ثم انقطاع هذا الظرف والتعبير بالظرف (لدى) في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [لق: ١٨]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٣﴾﴾ [لق: ٢٣]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْمَعِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [٢٨-٢٩]

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [لق: ٣٥]

دلالة هذين الظرفين:

يقول الراجب: " عند: لفظ موضوع للقرب، فتارة يستعمل في مكان، وتارة في الاعتقاد نحو أن يقال: عندي كذا، وتارة في الزلفى والمنزلة"، وقال عن لدن التي بمعنى لدى: "لَدُنْ أَخْصَّ مِنْ "عند" لأنه يدل على ابتداء نهاية، نحو: أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فيوضع لدن موضع نهاية الفعل، وقد يوضع موضع "عند" فيما حكي يقال: أصبت عنده مالا، ولدنه، قال بعضهم: لَدُنْ أَبْلَغُ مِنْ عِنْدِ وَأَخْصُ" (١)

ولعلنا في ضوء ما ذكر الراجب في هاتين اللفظتين نستطيع إدراك مدى ملاءمة كل من هذين الظرفين لطبيعة موقعه في السياق؛ أعني ملاءمة الأول

(١) المفردات: مادة [ل. د. ي.] ومادة [ع. ن. د.]

"عند" المشعر بمعنى القرب "للحفظ" لما يطرأ على الإنسان في الدنيا من تبدل وفناء وغيره، وفيه إشارة بقرب البعث، وملاءمة الثاني "لدى" لأحوال النهاية الأخروية.

د - تكرار فعل الخلق:

وبالإضافة إلى المسلك السابق يظهر مسلك مختص بالخلق، حيث ذكر فعل الخلق مرتين وأثر أن يتعلق أولهما بخلق الإنسان ثم ختم بخلق السموات والأرض، فعان السياق يقرر من خلال هذا الترتيب، أن خالق السموات والأرض دون أدنى لغوب - وهما الأكبر والأعظم - هو من باب أولى أقدر على إعادة الإنسان يوم البعث، فتقديم خلق الإنسان على خلق السموات والأرض ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمُ آيَاتِنَا مَا تُوَسَّوَسُ بِهِمْ فَسُطُّوا عَنْ أَبْصَارِهِمْ وَأَنْصَرُوا﴾ [لق: ١٦]

وتقع هذه الآية موقعاً موطناً لبيان عاقبة الإدراك الأولى [الناقص] على حين أن خلق السموات والأرض ورد بعد تمام الصورة المثلى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [لق: ٣٨]

ويقود تأمل الموقعين إلى القول بأن بلوغ مرحلة الإدراك بالصورة المثلى اقتضت البداية من خلق الإنسان ثم الانتهاء بخلق السموات والأرض، وذلك للانتقال بمنكري البعث من ضيق الأفق المسيطر عليهم إلى رحابة الكون غير المدرك لديهم.

والتأمل للسورة يلمح إفراد السماء في أول السورة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [لق: ٦]، حيث المراد التأمل وجمعها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْبٌ أَسْمَعُ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [لق: ٣٧]، ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب [لق: ٣٨]، حيث المراد الدلالة على القدرة، وهذا الإفراد والجمع له علاقة بالإدراك الناقص والصورة المثلى التي أشرت لها من قبل؛ فإفراد السماء كان في أول السورة للحث على التأمل يتناسب مع إدراكهم الناقص وجمعها جاء

بعد بيان الصورة المثلى ورسوخ القدرة، ويقول الدكتور الجعلي: "وأما السماء فذكرت تارة بصيغة الجمع، وتارة بصيغة الأفراد لنكت تليق بكل موضع، فحيث أريد العدد أتى بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة، وحيث أريدت الجهة أتى بصيغة الأفراد"^(١).

سادساً: الدلالة الحجاجية في توزيع الضمائر:

المتأمل للسورة يلاحظ أن جل ضمائر التكلم تعود على الخالق عز وجل ومنها: (علمنا - عندنا - بنيناها - زينها - ألقينا - أنبتنا - نزلنا - أحيينا - خلفنا - فكشفنا - نقول...) أما منكرو البعث فليس لهم من هذه الضمائر إلا موضعان ﴿ أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾ ويلاحظ أنهما قد وقعا في مقول القول ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ وكأننا بالسياق من خلال هذه المفارقة يذكرنا بقوله جل وعلا: ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] وهذا في تقديري يدل على العلم المطلق الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا نُوسِسُ بِهِ فَنَسَهُ وَمَنْ أَوْقَرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [لق: ١٦].

وتبقى إشارة أخيرة إلى أن ابتداء السورة بالقرآن واختتامها به في قوله سبحانه: ﴿ تَنْحَنُّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْنَا الْقُرْءَانَ مِنْ خِيفٍ وَعِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [لق: ٤٥] يؤكد أن البداية تسلم به إلى النهاية وأنه أمام إدراكين وعاقبتين ويوم الخروج نتيجة لكل منهما كما تبين مما سبق.

ثانياً: سورة الانشقاق:

هذه السورة مكية سبقت بسورتي المطففين والانفطار من حيث الترتيب المصحفي، ويقود تأمل السورتين إلى القول بأن سورة الانشقاق تمثل تحقق الجزاء الذي أشير إليه في سورة الانفطار في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١١﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَكْتُبُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]

(١) من بدائع النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية لسورة "ق"، ص ٧٤.

ويمكن توصيف هذه الصورة الواردة في الآيات بالتسجيل، كما يمكن التوصل إلى المرحلة اللاحقة للتسجيل في قوله جل وعلا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْهُومٌ ﴿٩﴾﴾ [المطففين: ٧-٩]

إن الصورة البارزة في الآيات السابقة هي حفظ الكتاب؛ لذا يمكن أن نطلق على هذه المرحلة مرحلة الحفظ، وفي ضوء استحضار المرحلتين [التسجيل والحفظ] يمكن إطلاق لفظ "التسليم" على الآيات الواردة في سورة الانشقاق في قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ، يَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ، وَرَاءَهُ ظَهْرُوه ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق: ٦-١٣]

وقد أشار أستاذنا الدكتور حسن طبل في تناوله لسورة المطففين إلى هذا الترتيب المصحفي للسور الثلاث، وارتباط هذا بالمضمون الذي يدور حول يوم القيامة، فقد ركزت سورة الانفطار على انقلاب الظواهر الكونية كأول مرحلة من مراحل يوم القيامة، ثم ركزت سورة المطففين على موقف البعث والحشر والحساب، وتناولت سورة الانشقاق ساعة الحساب الذي يكون يسيرا على أهل اليمين عسيرا على من سواهم، فبني هذا الترتيب المصحفي وفقا لمرحل يوم القيامة، وتضمن رصداً لتسجيل الملائكة لأعمال البشر بحسب هذا الترتيب (الكتابة - الحفظ المكتوب - تسليم الكتاب)(^١).

ويظهر هذا الترابط بصورة جلية في الصلة بين ختام المطففين ومطلع الانشقاق، ويوضح البقاعي هذه الصلة قائلا: "مقصودها الدلالة على آخر المطففين من أن الأولياء منعمون والأعداء يعذبون؛ لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث ... لما ختمت التطفيف بأن الأولياء في نعيم، وأن الأعداء في جحيم ثوابا وعقابا، ابتداء هذه بالإقسام على ذلك فقال: (إذا السماء)(^٢)".

(^١) ينظر: في رحاب القرآن، تأملات بلاغية، د. حسن جاد طبل، دار النابغة للنشر والتوزيع،

الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م. الجزء الأول، ص ١٥٨-١٥٩.

(^٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الجزء الثامن، ص ٣٦٧، بتصرف.

إن إشارة البقاعي بالإقرار بالبعث في ختام المطففين تقتضي بناء الصورة على حجج قطعية كاشفة عن تهافت إنكارهم السابق؛ لذا يتضح لقارئ السورة أنها تضمنت مسالك حجاجية يمكن تقسيمها على النحو التالي:

أولاً: حجاجية الاستهلال وموجهات التعبير.

ثانياً: القياس المضمّر.

ثالثاً: التركيز على بنية التقابل.

رابعاً: دلالة القسم المنفي.

وتلك المسالك هي ما سوف نتوقف لتوضيح كل منها فيما يلي:

أولاً: حجاجية الاستهلال وموجهات التعبير:

قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُحَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَخَلَتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُحَّتْ ⑤ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلْقِيهِ ⑥﴾ [الانشقاق ١-٦]

إن أول ما يسترعي الانتباه في هذه السورة هو أنها بدأت بتكرار أسلوب الشرط مرتين، تصويراً لهذا الانقلاب الكوني الذي سيحدث متمثلاً في انشقاق السماء التي وصفت في سياق سورة الملك بأنها لا فطور فيها فقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْوُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ②﴾ [الملك: ٣]

إن علاقة الانشقاق بالسور السابقة من حيث ترتيب المصحف لا تقتصر على ما سبق ذكره، بل تمتد لتشمل الأسلوب الذي اعتمد في المطلع، وهو أسلوب الشرط، لكن أسلوب الشرط ورد تام الأركان في الانفطار قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤﴾ وورد ناقصاً في الانشقاق؛ حيث حذف جواب الشرط فيها،

وفي تقديره عدة أقوال منها قول الزمخشري: " حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب، أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار" (١).

أورد "الرازي" عدة أقوال منها أنه ترك لأن المعنى قد تردد في القرآن فعرف، أو أن المعنى محمول على التقديم والتأخير؛ كأن القول: يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت وقامت القيامة، أو أن الجواب في قوله: فأما من أوتي كتابه، ولم يرجح بين هذه الأقوال (٢).

وقال القاسمي: "جواب "إذا" محذوف للتحويل بالإبهام" (٣).

والنفس تطمئن إلى ما ذهب إليه الزمخشري من أن جواب الشرط محذوف ليستفاد من السور السابقة، كما أنه يلفت النظر إلى أن هذا الانقلاب الكوني سيحدث حتماً، فالحذف يؤكد حدوث الظاهرة، واللافت في هذا الشرط أنه مبني على القياس المضمّر - كما سيتضح.

ثانياً: القياس المضمّر:

إن الشرط الذي صُدّرت به السورة مبني على القياس المضمّر، حيث أقام على المنكر الحجة الدامغة انطلاقاً من مقدمة كبرى هي أن السماء والأرض أكبر من خلق الناس قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) [غافر: ٥٧]

ومقدمة صغرى وهي استجابة السموات والأرض في طوعية لأمر الله قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُشَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤)﴾ [الانشقاق: ١ - ٤].

يمكن من خلال تأمل القياس المضمّر استخراج قاعدة حجاجية يلخصها التعبير التالي: "استجابة الكل تستلزم استجابة الجزء"، ويقصد بلفظ "الكل" في القاعدة "السموات والأرض"، ويقصد بلفظ الجزء "إنسان"؛ وانطلاقاً من هذه

(١) الكشاف، للزمخشري، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ، الجزء الرابع، ص ٧٢٥.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب الجزء الواحد والثلاثون، ص ٩٧.

(٣) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، الجزء التاسع، ص ٤٤٠.

القاعدة القاطعة تكون استجابة الجزء للخالق تعالى - قياسا باستجابة الكل - أمرا بدهيا غير قابل للجدل؛ أي حتما ستتستجيب وتذعن أيها المنكر كما استجابت السموات والأرض قال تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾ [الانشقاق : ٥]

وقد توجه باحث معاصر إلى ربط الأرض بالاحتواء في معرض حديثه عن سورة النبأ، حيث قال: "والعلاقة التي تقوم بين الأرض وما ذكر بعدها من جبال وإنسان هي علاقة احتواء، ثم نجد الإنسان يحوي النوم وهو يحتويه كذلك، والليل يحوي النوم ويغشى الحياة وأشياءها ويحتويها. وبالنظر - في المقابل لهذه الدلائل الأرضية إلى دلائل السماء - نجد هذه العلاقة حاضرة بقوة، فالسماء تحتوي الشمس، والمعصرات تحتوي الماء، والماء يحوي مادة الحياة للموجودات النباتية والحيوانية"^(١).

وعلى الرغم من وجهة ما قال فإنه لا يمكن حمل كل المواضع التي وردت فيها الأرض على فكرة الاحتواء، إذ إن لكل سورة خصوصية ومقصودا يتطلبان تنوعا في البناء الحجاجي، فقد وظفت في هذه السورة لدعم قاعدة حجاجية مستنبطة من القياس المضمرة وهي "استجابة الكل تستلزم استجابة الجزء".

وتتضافر دلالة القياس المضمرة في هذه الآيات مع دلالات بعض الموجهات التعبيرية، ويحسن عرضها في ثلاث نقاط هي:

- إيثار صيغة المطاوعة.
- إيثار صيغة الماضي.
- بناء الفعل لما لم يسم فاعله .

ويحسن عرض هذه النقاط بشكل تفصيلي وهي كالتالي:

(١) بنية الحجاج لسورة "النبأ" وآليات بيانها (دراسة تطبيقية)، أمير فاضل سعد، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد-الأردن، ضمن المؤلف الجماعي الحجاج رؤى نظرية ودراسات تطبيقية، إشراف حسن خميس الملح، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص ١٢٣

١- صيغة المطاوعة:

تدل صيغة المطاوعة (انشقت) على الانقياد التام لأمر الله، ولا يخفى ما في التعبير بالفعل (أذنت) من دلالة على الاستماع والإصغاء، وإيثار التعبير بـ(ربها) دون خالقها أو اسم الجلالة لما في هذا من دلالة على أن الرب هو المالك والسيد^(١).

٢- إيثار صيغة الماضي:

يدل توظيف الفعل الماضي في السورة على التحقق، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿وَأَقَمْتَ مَا فِيهَا وَنَحَلْتَ^(٤) وَأَذِنْتَ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ^(٥)﴾ [الانشقاق: ٤-٥]

٣- بناء الفعل لما لم يسم فاعله:

إن جعل الأرض في مقام الفاعل رغم أنها جماد يؤكد الطواعية وتمام الانقياد لأمر الله، ويدعم هذه الطواعية بناء الفعل لما لم يسم فاعله ومن ذلك (حقت - مدت - أوتى) مما يجعل المخاطب يركز في الحدث دون النظر إلى المُحدث^(٢).

كما أن استعمال اسم الفاعل (كادح - ملاقيه) يؤكد حتمية استجابة الإنسان لما يفيد اسم الفاعل من الثبوت والدوام للصفة كما يقول الدكتور فاضل السامرائي: إن "اسم الفاعل كأنه قد تم وثبت وصفاً لصاحبه"^(٣)

وتظهر الدلالة السابقة لاسم الفاعل في لفظتي (كادح - ملاقيه) إذ تضمنتا معنى الحتمية، فإذا كانت السماء والأرض سوف تسلم كل منهما نفسها لله، إذن الإنسان سيؤول أمره لربه ويستجيب؛ لأنه جزء من كل.

(١) تنظر مادة (ر.ب.ب)، لسان العرب، لابن منظور، دار الحديث-القاهرة، طبعة مراجعة ومصححة بمعرفة نخبة من الأساتذة المختصين، ٢٠٠٣م، وقد أشار د.السامرائي إلى هذا المعنى في معرض حديثه عن مطلع سورة إبراهيم، ينظر: مراعاة المقام في التعبير القرآني، د.فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، ص ٢٧.

(٢) سبقت الإشارة إلى اطراد هذه الظاهرة في البيان القرآني في الفصل الأول (مبحث الصيغة) من هذا البحث.

(٣) معاني الأنبياء: د.فاضل صالح السامرائي، دار عمار-الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م. ص ٤٥.

ثالثاً: التركيز على بنية التقابل:

حين نتأمل سياق سورة الانشقاق يتضح لنا مدى ارتكازه على بنية التقابل ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۗ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۗ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصِلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴿﴾ [الانشقاق: ٧-١٥]

تظهر هذه البنية التقابلية في وصف كيفية تسلم المؤمن لكتابه بيمينه وتسلم المنكر للبعث لكتابه من وراء ظهره، وقد عرض أستاذنا الدكتور حسن طبل لهذه البنية التقابلية بعد أن عرّف التقابل قائلاً: "هو وضع الشيء بإزاء مُضاده في السياق الواحد، الأمر الذي يترتب عليه وضوح كل من الطرفين المتقابلين بالآخر"^(١).

يتمثل التقابل أيضاً في الآتي:

١- طريقة الانقلاب إلى الأهل، فالمؤمن ينقلب إلى أهله فرحاً مسروراً، فانتهاه الغاية وصوله لهذا السرور الدائم، وهذا ما أفاده حرف الجر (إلى) وفي مقابل هذه الصورة، ينقلب المنكر إلى أهله نادباً حظه مُنادياً بالهلاك والثبور، فسوره كان في الدنيا، وهذا السرور الفائت لم يتبق منه إلا الحسرة والندم، وذلك لأنه ظن أنه لن يرجع إلى الله، فالحور معناه الرجوع^(٢).

٢- ويتمثل أيضاً في اختلاف الأهل؛ فالمنكر أهله في الدنيا من نسبه وعشيرته، أما المؤمن فأهله في الجنة من المؤمنين تربطهم علاقة الإيمان والود في الله، فيثير هذا التقابل انتباه المخاطب فيحدث مقارنة بين حاله إن ظل على إنكاره، وبين حال المؤمن فيتضافر هذا التقابل مع سياق الإمهال في السورة، فيدفعه ذلك إلى الإذعان للبعث.

(١) في رحاب القرآن تأملات بلاغية ، ص ١٦٥ .

(٢) تنظر: مادة [ح . و . ر] المفردات .

رابعاً: دلالة القسم المنفي:

قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق ١٦ : ١٩].

ورد القسم في هذه الآيات منفيًا فما دلالة ذلك؟

للإجابة عن السؤال السابق يحسن استحضار تناول الدكتورة عائشة عبد الرحمن لظاهرة القسم المنفي إذ أوردت بعض أقوال المفسرين "بأن (لا أقسم) معناه: أقسم، زيدت لا للتأكيد: دون إشارة إلى المقتضى البياني للعدول عن (أقسم) إلى (لا أقسم) أو إيضاح وجه تأكيد القسم بالنفي، وأن ذلك من عبارات العرب التي يراد بها تأكيد الخبر وتعظيم المقسم به، وأن صيغة (لا أقسم) لم ترد على مدار النص القرآني إلا بإسناد الفعل لله تعالى، فنفي الحاجة إلى القسم تأكيد له، كما أن لفظ أقسم يغلب مجيئه في الأيمان الصادقة"^(١).

وهذا القسم المنفي يلفت إلى أن هذا التعاقب مرتبط بالجمع، وهذا ما تؤكدته الألفاظ المعجمية المستخدمة في القسم، فالشفق هو اختلاط ضوء النهار بظلام الليل عند الغروب، فالمادة تدل على الاختلاط، ومنها الإشفاق وهو العناية المختلطة بالخوف، و(وسق) يدل على جمع الأشياء المتفرقة وضمها بعضها إلى بعض، ويعني في الآية ما جمع من الظلم وطوارق الليل، و(اتسق) هو من (افتعل) أي اشتمل ضوءه في الليالي البيض واكتمل^(٢).

فالقسم يلفت إلى ظاهرة كونية متعاقبة لم يدركها المخاطب لاعتياده رؤيتها، واللافت فيها ورود صيغة المطاوعة التي استهلكت بها السورة، ويدعم هذا ما أشرت إليه من بناء السورة على قاعدة "استجابة الكل تستلزم استجابة الجزء"، حيث اختيرت ثلاث ظواهر كونية تقابل ثلاث مراحل يمر بها الإنسان؛ فالشفق يمثل نهاية الحياة، والليل وما وسق يمثل الموت ودخول القبر، والقمر يمثل

• ٢التفسير البياني للقرآن الكريم، د.عائشة عبدالرحمن، دار المعارف-القاهرة، الطبعة السابعة، بدون تاريخ، الجزء الأول، ص ١٦٨.

(٢) تنظر: مادة [ش.ف.ق] و مادة [و.س.ق] في عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م

البعث، حيث انكشاف الحقائق وشهود ما كان غيبًا؛ فالإنسان بوصفه جزءًا استجاب لهذه الظواهر الكونية بوصفها كلاً، وتكيف معها، وأعد أموره من خلالها، فأدرك أن الشفق مؤذن برحيل النهار ووقوم الليل، واستجاب من خلال قدوم الليل إلى ما أراد الله له من الراحة والسكون، وانطلق في حساب أيامه من اتساق القمر المتحقق قرب انتصاف الشهر.

ولا ريب أن السياق يؤكد استبعاد المنكر للبعث كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ﴾ [الانشقاق: ١٤] حيث لفته القرآن إلى انقياده لهذه الظواهر الكونية دون أن يدرك ويلمح أن السياق فيه إمهال للمنكر ليتفكر ويوقن أنه سيمر مرورًا حتميًا بثلاث مراحل (حياة - موت - بعث) مثل هذه المراحل الكونية المذكورة، وهذا ما أفاده أفراد لفظة "طبق".

وبعد توظيف القسم المنفي الدال على وضوح الأمارات وتحققها، يظهر الأثر الحجاجي لدى المنكر فلم يعد لديه مسوغ للركون إلى معتقده؛ فناسب هذا الوضوح في الأمارات السخرية من بقائه على المعتقد السابق، وتتجلى هذه السخرية من خلال أسلوب الاستفهام الإنكاري في قوله جلّ وعلا: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠]

وفي الأمر المتمثل في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤] على سبيل الاستعارة التهكمية .

ثالثاً: سورة الروم:

سورة الروم هي إحدى السور التي نزلت في أواخر العهد المكي؛ فترتيبها في النزول الرابعة والثمانون، وتنطبق عليها خاصية ارتباط السور المكية بالبعث، ويمكن الكشف عن هذا الارتباط من خلال الترتيب النزولي؛ حيث سبقت بسورة الانشقاق المبنية - كما أسلفنا - على عدة تقنيات حجاجية والمختمة بالسخرية في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢٠] وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ [الانشقاق: ٢٠-٢٥]

وناسب ورود هذه السخرية الابتداء بالحروف المقطعة في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿ ١ ﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿ ٢ ﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِلُونَ ﴿ ٣ ﴾ فِي يَضِعَ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ ٤ ﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٥ ﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٦ ﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿ ٧ ﴾ [الروم: ١-٧]؛ فوجه السخرية في هذه الحروف المقطعة إظهار عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن.

وبعد قرع سمع المخاطب بهذه الحروف المقطعة شرعت السورة في بيان التناقض الذي يحيا به المشركون، إذ أشارت إلى فرحهم بانتصار الفرس على الروم، ونصت على أنه فرح مؤقت سيؤول حاله إلى التغيير المفضي إلى فرح المؤمنين.

والواقع أنَّ سورة الروم يتمثل فيها ما سبق أن رأيناه جلياً في سورتي (ق)، والانشقاق) من حيث التركيز على البنى الحجاجية المتنوعة في دحض مزاعم المشركين حول قضية البعث، وبحسبنا هنا أن نشير إلى البنى الحجاجية التالية:

أ-بنية الواقع ودائرية الحركة.

ب-التركيز على بنية التقابل.

ج-التصوير الحجاجي.

ونود فيما يلي التوقف قليلاً إزاء كل من هذه البنى الحجاجية:

أ-بنية الواقع ودائرية الحركة:

قال تعالى: ﴿ ١١ ﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ ١٢ ﴾ [الروم: ١١]

هذه الآية -في تصوري- تمثل النواة الأساسية التي تلتف حولها وترتبط بها سائر المعاني والأغراض التي تضمنتها السورة، ويتأمل هذه الآية يتجلى لنا ما يلي:

١- أنها بدأت بجملة اسمية؛ حيث وقع اسم الجلالة (الله) مبتدأ، ثم جاء الخبر جملة فعلية (يبدأ الخلق)، ومن شأن هذا التركيب أنه يفيد تأكيد الغرض أو

المعنى المراد، يقول عبد القاهر الجرجاني في بيان طبيعة الدور الدلالي لمثل هذا التركيب: " فإذا عَمَدتْ إلى الذي أردت أن تُحدِّثَ عنه بفعلٍ فقدمت ذكره، ثم بنيت الفعل عليه فقلت: "زيد قد فعل" و"أنا فعلت" و"أنت فعلت"، اقتضى ذلك أن يكون القصدُ على الفاعل، إلا أنَّ المعنى في هذا القصد ينقسم قسمين:

أحدهما جَلِيٌّ لا يُشكِلُ: وهو أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنصَّ فيه على واحدٍ فتجعله له، وتزعم أنه فاعله دون واحدٍ آخر، أو دون كل أحد. ومثال ذلك أن تقول: "أنا كتبت في معنى فلان، وأنا شفعت في بابه، تريد أن تدَّعي الانفراد بذلك والاستبدادية، وتُزِيلَ الاشتباه فيه، وتردَّ على من زعم أن ذلك كان من غيرك، أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتبت. ومن البين في ذلك قولهم في المثل: "أَتَعْلَمُنِي بِضَبِّ أَنَا حَرَشْتُهُ.

والقسم الثاني: أن لا يكون القصدُ إلى الفاعل على هذا المعنى، ولكن على أنك أردت أن تحقِّق على السامع أنه قد فعل، وتمنعه من الشك، فأنت لذلك تبدأ بذكره، وتوقعه أولاً ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه، لكي تباعده بذلك من الشبهة، وتمنعه من الإنكار، أو من أن يُظنَّ بك الغلط أو التزيُّد. ومثاله قولك: "هو يعطي الجزيل"، "وهو يحب الثناء"، لا تريد أن تزعم أنه ليس هنا من يعطي الجزيل ويحبُّ الثناء غَيْرُهُ، ولا أن تعرِّضَ بإنسانٍ وتحطُّه عنه، وتجعله لا يعطي كما يعطي، ولا يرغب، ولكنك تريد أن تحقِّق على السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه، وأن تُمكنَ ذلك في نفسه.. فإن قلت: فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل، أكد لإثبات ذلك الفعل له، وأن يكون قوله "هما يلبسان المجد"، أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال: يلبسان المجد؟

فإن ذلك من أجل أنه لا يوتي بالاسم مُعرِّى من العوامل إلا قد نوى إسنادَه إليه. وإذا كان كذلك، فإذا قلت: "عبد الله" فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: "قام" أو قلت: خرج، أو قلت "قدم" فقد علم ما جئت به وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشدُّ لثبوتَه، وأنقى للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق...، ويشهد لما قلنا من أن تقديم المحدث عنه يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه له، أنا إذا تأملنا وجدنا هذا الضرب

من الكلام يجيء فيما سبق فيه إنكار "من منكر، نحو أن يقول الرجل: ليس لي علم بالذي تقول، فتقول له "أنت تعلم أن الأمر على ما أقول، ولكنك تميل إلى خصمي وكقول الناس "هو يعلم ذلك وإن أنكر، وهو يعلم الكذب فيما قال "وإن حلف عليه" = وكقوله تعالى: "ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون"، فهذا من أبين شيء. وذلك أن الكاذب، لا سيما في الدين، لا يعترف بأنه كاذب، وإذا لم يعترف بأنه كاذب، كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب.

أو يجيء فيما اعترض فيه شك، نحو أن يقول الرجل: "كأنك لا تعلم ما صنع فلان ولم يبلغك"، فيقول: "أنا أعلم ولكني أداريه" (١).

لقد آثرت نقل هذا النص على طوله؛ لأنه يكشف عن سر التركيب الذي يبدأ بمبتدأ يتقدم على خبر مثبت مكون من جملة فعلية، مما يفيد قوة تأكيد المعنى بإزالة الإنكار أو إزاحة الشبهة التي علفت بذهن المخاطب.

وفي ضوء ما تقدم نستطيع إدراك الدور الذي ينهض به صدر هذه الآية في إقناع المخاطب أو إفحامه بالحجة إن كان منكرًا، فجملة الله يبدأ الخلق، تكون بمثابة مقدمة مؤكدة تؤدي دورها في إثبات حتمية البعث، وكأن هذه الآية تجابه منكر البعث بالحقيقة التي لا يستطيع الجدل فيها، وهي أنه لم يبدأ خلق نفسه، فإذا كان المرء لا يستطيع إلا التسليم بهذه الحقيقة فلا يستطيع إلا التسليم بأن القادر على بدء الخلق سبحانه هو وحده القادر - من باب أولى - على إعادته.

ولعلنا نلاحظ كذلك أن الآية الكريمة قد عطفت الجملة الثانية على هذه الجملة بالحرف (ثم) الدال على التراخي الرتبي؛ للدلالة على عدم استئثار منكري البعث لهذه الحقيقة المؤكدة في التوصل إلى النتيجة اليقينية المترتبة عليها - وهي قدرة الخالق عز وجل على الإعادة.

نحن إذن مع هذه الآية الكريمة مع مقدمة يقينية لا يستطيع المتلقي إنكارها لمجيئها على صيغة خاصة هي "تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي" ثم

(١) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٤م. ص ١٢٨-١٣٣.

نتيجة تنبني عليها- وهي ترتب الإعادة على الخلق الأول ثم يعيده" ومغزى ذلك أن هذه الآية الكريمة قد سلكت مسلكاً حجاجياً في إثبات حقيقة البعث، وذلك عن طريق استثمار تلك التقنية الحجاجية التي يطلق عليها علماء الحجاج مصطلح "التأسيس على بنية الواقع"، يقول الدكتور عبد الله صولة في توضيح المسلك الخاص الذي تسلكه هذه التقنية: "الحجج القائمة على بنية الواقع تستخدم الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها، وأحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة مسلماً بها، وذلك بجعل الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها (حيث عطف فعل الإعادة على فعل البدء في الآية) بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلم بالآخر، ومن هنا جاء وصفها بكونها حججاً اتصالية أو قائمة على الاتصال"^(١).

ولعلنا نلاحظ أن تضمن الآية الكريمة لفعلي البدء والإعادة، وتوسط حال الموت- ضرورة بين الفعلين يتضمن حركة دائرية تسلم فيها النهاية إلى تكرار البداية هكذا..

١- خلق أول ٢- موت ٣- خلق ثان

ولعلنا نلاحظ كذلك أن هذه الحركة الدائرية تتمثل تمثلاً واضحاً في أكثر من موطن في سياق هذه السورة الكريمة، وهذا يؤكد ما أشرنا إليه منذ قليل من أن هذه الآية هي بمثابة المحور أو النواة المركزية التي ترتبط بها آيات السورة ومن هذه المواطن:

قوله سبحانه: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ [الروم: ٢ - ٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ [الروم: ٢٧].

(١) الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتكا، ص ٣٣١.

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠].

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

التركيز على بنية التقابل:

المتأمل في سياق هذه السورة يجد تركيزًا لافتًا على أبرز صور التقابل في غير مجال من مجالات الحياة، فمن ذلك:

▪ التقابل بين النصر والهزيمة في الإخبار عما حدث بين الروم والفرس (غلبت الروم - سيغلبون)

قال تعالى: ﴿غَلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الروم: ٢ - ٣].

▪ التقابل بين العلم الظاهر بأمور الدنيا، وعدم العلم بحقائق الآخرة

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم:

[٧]

▪ بين بدء الخلق وإعادته، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ١١]

▪ بين مصير المؤمنين ومصير الكفار، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٥ - ١٦].

▪ بين الإمساء والإصباح، قال تعالى: ﴿فَسُبْحٰنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: ١٧].

▪ بين مس الضر وذوق الرحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَقْبَهُ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم: ٣٣].

- بين بسط الرزق وتقديره، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم: ٣٧].
- بين الاستبشار والإبلاس، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا يَفْرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَلْسِتَ ﴿٤٩﴾﴾ [الروم: ٤٨ - ٤٩].

هذا بالإضافة إلى حفول السورة الكريمة بغير قليل من نماذج التقابل، كالتقابل بين (السموات والأرض - الحي والميت - الليل والنهار - الخوف والطمع - الموت والحياة - البر والبحر - الضعف والقوة ...).

ولعلنا في ضوء حفول السورة الكريمة بهذه الصور من التقابل نستطيع القول بأن هذه السورة قد اتكأت على تقنية التقابل في إثبات حقيقة البعث، ودحض مزاعم منكريه، وكأنها تفرعهم بهذه التقنية على غفلتهم عما في الكون من هذه الصور التقابلية التي تعج بها مظاهر الحياة من حولهم، والتي تقود المتأمل فيها إلى حقيقة أن هذه الثنائية التي يلمسونها في واقعهم بين السماء والأرض، أو بين الليل والنهار، أو بين البر والبحر، هي كذلك ماثلة بين الحياة والموت، وأن القادر على الخلق والإماتة هو سبحانه القادر على إعادة الحياة من جديد.

التصوير الحجاجي:

وظَّف التصوير الحجاجي في هذه السورة الكريمة في موضعين:

أولهما: قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: ١٩].

لقد وردت هذه الآية بعد بيان استحقاق التنزيه لله تعالى، وعدم إدراك المشركين لما يتضمن الزمن على تنوعه، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: ١٧]، إذ إنهم يقرون بإخراج الحي من الميت، ومشاهدون له حال الإنبات، ومقرون بالعاقبة الحسنة بنزول المطر، ومفيدون منها، لكنهم غير مدركين لما تضمنته عملية الإحياء، وغير مكثرئين بتفاصيله،

وعلى الرغم من ذلك يزعمون تعذر النظر وهو البعث؛ لذا أثر التعبير القرآني التعبير بالفعل المضارع عن الأمور التي يقرون بها (يخرج - يحيي) وتكرار الإخراج وإحياء الأرض يندرج في حيز العلم الظاهر الذي لا ينكرونه ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (٧) ﴿[الروم: ٧] على حين أن البعث يقع في دائرة العلم الراسخ المستقر (المنكر لديهم) ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ .

ولعلنا نلاحظ أن فعل (الخروج) في السورة قد جاء مغايرًا في بنائه للأفعال السابقة عليه ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ...﴾، فبينما جاءت هذه الأفعال مبنية للمعلوم، جاء هذا الفعل مبنياً لما لم يسم فاعله، موافقاً في ذلك لفعل (الرجوع) في الآية الحادية عشر في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) ﴿[الروم: ١١].

ولعل ذلك - والله أعلم - للفت أنظار هؤلاء المشركين إلى حتمية هذا الخروج الذي هو بيد الخالق وحده، فكان الصورة التشبيهية هنا قد جاءت بنسق حجاجي مؤداه- إذا كنتم تقرون بإخراج الحي من الميت، والميت من الحي، ولا تجادلون فيه، فليس أمامكم إلا أن تقرروا بأن فاعل هذا الخروج في الدنيا هو القادر على الإخراج والبعث في الآخرة.

وثانيهما: قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحْمَلُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ (٤٩) ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْنَى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٠) ﴿[الروم: ٤٨-٥٠].

واللافت أن هذه الصورة الحجاجية لم تأت بصيغة الفعل، بل جاء التعبير فيها بصيغة الاسم (محيي) ويقود تأمل الموضوعين السابقين إلى القول بأن بنية الصورة فيهما واحدة؛ لاشتراكهما في ذكر إحياء الأرض بعد موتها، والواقع أن تتبع ذكر لفظة الأرض (١) في السورة كلها يُفضي إلى القول بأنها وظفت لكونها

(١) وردت لفظة الأرض في هذه السورة في أربعة عشر موضعاً.

الدليل الأبرز الذي يمكن عند تأمله استنتاج حتمية البعث، ويظهر هذا الأمر من خلال ارتباط ذكرها بالتفكير في العاقبة في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم: ٨-٩].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم: ٤٢].

فهذه الصورة اعتمدت في إثبات البعث على تشبيهه بصورة حسية متكررة في الواقع، مما يجعل المنكر يتراجع عن موقفه الإنكاري الصارم متوجهاً بفكره إلى هذا المحيط الحسي، يقول الدكتور عبدالله صولة: "إن ما تختص به الصورة القرآنية هو أن المتلقي يُوجَّه توجيهها صارماً نحو مفهوم بعينه لا نحو مفاهيم متعددة مختلفة وربما متناقضة... ووجه آخر من وجوه الحجاج بواسطة الصورة اضطرارها المتلقي إلى إرجاء لحظة اعتراضه على الحكم الذي يأتي به الكلام"^(١)

ولعلنا نلاحظ أن هذه الصورة الثانية لم تكتفِ بذكر (الأرض) بل ذكرت لفظة (السماء) ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا... ﴾ حيث تضمن ذكرها تفصيلاً للمراحل التي يتكون فيها السحاب، وهي المراحل التي يغفل عن دقتها الإنسان على الرغم من احتفائه بعاقبتها (المطر) واستبشاره بها.

ويقود تأمل دقة هذه المراحل المتكررة المخاطب المنكر إلى الخروج من دائرة التفكير القريب، من خلال التركيز على الأرض في الصورة الأولى، إلى الدخول للدائرة الأوسع المبنية على العلم الثابت المنكر لديه - الذي مؤداه البعث؛ لذا ناسب التعبير في الصورة الأولى بالفعل ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ لتغيير وجهته

(١) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص ٥٧٦.

السابقة، وناسب الصورة الثانية التعبير بصيغة الاسم للدلالة على الثبوت ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحِي الْمَوْتِ ﴾

ولعلنا نلاحظ أن الصورتين قد تكرر فيهما اسم الإشارة (ذلك)، ولعلنا نلاحظ كذلك أن هذا الاسم قد ورد في أكثر من موضع في السورة منها..

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْبُحُورِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ أَصْحَابُ الْأَنْهَارِ بِأَيْدِيهِمْ يَرْسُلُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم: ٢٣-٢٤].

وفي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم: ٣٧].

إن ارتباط اسم الإشارة بوسائل الإدراك المتعلقة بالتفكير والسمع والتعقل يدفع المخاطب المنكر إلى استخدام تلك الوسائل عند تأمله لمرحلة تكوين السحب السابقة لنزول المطر، وقد بني تذييل الآية على أن التفصيل الوارد حول نشأة السحاب كفيل بالقطع بالدقة في كل الآيات، وقد ورد التوجيه إلى استخدام الفعل ﴿ فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ... ﴾ للدفع إلى الخروج من الدائرة التي كان فيها المنكر إلى الدائرة الأوسع التي تقوده إلى الإيمان بالبعث، ودحض أي جدال حوله.

الخاتمة:

لا يسعنا بعد هذا التطواف إلا أن نجمل أبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث وذلك فيما يلي:

- أن البيان القرآني قد استخدم في تقريره لحقيقة البعث أنجع التقنيات الحجاجية التي دحض بها مزاعم المشركين في هذه القضية.
- عمد القرآن الكريم إلى الصورة الحجاجية المأخوذة من واقع البيئة المحيطة بالمخاطبين.
- أن البيان القرآني في اثباته لقضية البعث قد وظف كثيرًا من التقنيات البلاغية والصور الفنية.
- ان كلاً من - الترتيبين المصحفي والنزولي - للقرآن الكريم له أثره في استكناه السرار والنكات البلاغية الماثلة في هذا البيان القرآني المعجز.

﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾
[ص: ٢٩].

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع:

- بنية الحجاج لسورة "النبأ" وآيات بيانها (دراسة تطبيقية)، أمير فاضل سعد، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد-الأردن، ضمن المؤلف الجماعي الحجاج رؤى نظرية ودراسات تطبيقية، إشراف حسن خميس الملخ، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون تاريخ.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية- تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر -بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبدالرحمن، دار المعارف- القاهرة، الطبعة السابعة، بدون تاريخ.
- تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاج، جمع وتعريب: صابر الحباشة، الدار المتوسطة للنشر -تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م- ١٤٢٨هـ.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ضياء الدين الأثير، قام بتحقيقه والتعليق عليه د. مصطفى جواد، د. جميل سعد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، طبعة ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م.
- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، د. عبد الله صولة، دار الفارابي -بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
- الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج -الخطابة الجديدة -" لبرلمان وتتيكا، د. عبدالله صولة، ضمن المؤلف الجماعي أهم

- نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية - تونس.
- حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، د.كمال الزماني، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، أربد -الأردن ، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
 - دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، الطبعة السابعة، ١٩٩٣م.
 - دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي-القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٤م.
 - روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، للأوسلي، تحقيق: علي عبدالباري عطيه، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
 - شرح المفصل، لابن يعيش، قدم له د.إيميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
 - العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة، وبدون تاريخ.
 - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية -بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
 - غرائب التفسير وعجائب التأويل، للكرماني، تحقيق: د.شمران سركال العجلي، دار القبلة الثقافية الإسلامية- جدة، مؤسسة علوم القرآن -بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.
 - في الخلفية النظرية للمصطلح، حمادي صمود، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج، إشراف: حمادي صمود، جامعة الفنون والعلوم الإنسانية- تونس.
 - في رحاب القرآن تأملات بلاغية، د. حسن جاد طبل، دار النابعة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.
 - كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البيجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الثامنة، بدون تاريخ.
 - الكشاف، للزمخشري، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

- لسان العرب، لابن منظور، دار الحديث-القاهرة، طبعة مراجعة ومصححة بمعرفة نخبة من الأساتذة المختصين، ٢٠٠٣م.
- اللسان والميزان أو التكور العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- مراعاة المقام في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
- معاني الأبنية، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار- الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.
- مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبع الثالثة، ١٤٢٠هـ.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- من بدائع النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية لسورة (ق)، د. إبراهيم طه أحمد الجعلي، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- نظرية الحجاج عند شايبم برلمان، تأليف د. الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

ثالثاً: الدوريات:

- أسلوب القسم في القرآن الكريم، د. إبراهيم عبد الحميد التلب، مجلة كلية اللغة العربية العدد الخامس ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، جامعة الأزهر - القاهرة.
- هل توجد نظرية نقدية عربية؟ د. صلاح فضل، مجلة العربي الكويتية العدد ٥٦٠، جمادى الأولى ١٤٢٦هـ - يوليو ٢٠٠٥م.